مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

# مفهوم التاريخ بين تحقيق الرواية ومحاورة الجغرافيا
## مقاربة معرفية في نصّ المسعودي(ت346هـ/957م)

طاهر بن علي
جامعـــة غردايـــة
ezzahirit@gmail.com

**الملخّص-**

تنوّعت الكتابة التاريخية في الحضارة الإسلامية وأعطت نماذج كثيرة، لتمنح الدراسات الحديثة حقلا معرفيا يبحث تطوّر المناهج والرؤى في تناول تحرير النصّ التاريخي. وتوزّع هذا التنوّع على مناهج الكتابة من جهة، وعلى مفهوم التاريخ من جهة أخرى. فالطبري سلك مسلك تحرير الرواية كما وردت، وذلك بتحويل المروي إلى مكتوب. بينما سلك المسعودي محاورة للجغرافيا، التي مثّلت الفعل التاريخي في حدوده الفيزيائية. ومن خلال ذلك يتحرّر مفهوم التاريخ بأبعاده، ليس من قبيل التحديد فحسب بل من قبيل التمثّلات. والمقال مقاربة في نصوص المسعودي لتفسير هذا المعنى وبيانه.

**الكلمات المفتاحية-**

الكتابة التاريخية، المعرفة التاريخية، الرواية، المشاهدة، الجغرافيا، المسعودي.

## The meaning of History: between the realization of the narrative and reference to geography

**Abstract-**

the historical writing witnessed many varieties in the Islamic civilization giving several examples to offer the Modern studies a cognitifield which looks for the development of approaches and views in dealing with editing historical texts This diversity included the different approaches on one hand, and the meaning of History on the other hand. Et-tabari for instance, followed the approach of editing narratives as they are by transforming the narration into a written form. Whereas Elmessaoudi referred to geography in editing narratives which really presented the historical action in its physical



المنارة للاستشارات

limits. And from that the meaning of History is freed with its dimensions , not in the way of identification but the perception. And the present essay is an approach to Elmessaoudi's texts to explain this.
**key words -**
The Historical writing, the Historical knowledge, the narrative, Geography and Elmessaoudi. perceptions

**توطئة**

باشر أغلب المؤرّخين في العصور الإسلامية الأولى التاريخ رواية من خلال التزام المنحى العام للعلوم في ذلك الوقت، أو حاولوا التاريخ بمضمون الثقافة التي كانت الرواية محورها باعتبار الخصوصية العربية، وباعتبار ورود الحديث النبوي نسقا معرفيا جديدا تطلّب زخمه الإكثار من الرواية.

ثمّ لم يكن التحصيل عندهم إلاّ من حيث المدارسة والتلقّي، ولم تكن لهم السياحة في الآفاق، ولم يحدث لهم النظر في المجتمعات من خلال الجغرافيا[1]، التي كانت إحدى روافد المعرفة التاريخية لنفر من المؤرّخين المسلمين، وأحد مكوّنات المركّب المعرفي لديهم[2].

إنّ تنوّع الكتابة التاريخية، واختلاف مناهج التأليف فيها، مكّن الدارسين من معرفة المفاهيم التي أُسديَت للتاريخ من حيث المحاولة في فنّه باعتباره من مكوّنات المعرفة، ومن اتّجاهات العلم. ومنحت للتفهّم مجالات واسعة في تمثّلاته للتاريخ وأحداثه.

وقد ساهم المؤرّخ الإسلامي المسعودي(ت346هـ/957م) في هذا التنوّع بمؤلّفات خصّها للتاريخ جزءا مقسوما، وجانبا موفورا، ليؤكّد بذلك على

(1) نستثني من هؤلاء معشر المحدّثين والفقهاء الذين كابدوا الجغرافيا ولكن لغاية واحدة هي تحصيل الحديث، أو تحصيل العلوم الأخرى ولم تأخذ الجغرافيا حيّزا في اهتماماتهم على الشكل الذي يجعلها همّا علميّا أو رؤية فكرية. للتفصيل والمقارنة، انظر:
أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت 463هـ/1072م): الرحلة في طلب الحديث، تحقيق: نور الدين عتر، ط 01، دار الكتب العلمية، دمشق 1395هـ/ 1975م.

(2) Régis (Blachère) et Henri (Darmaun): Extraits des principaux géographes arabes du Moyen Age, 2em Edition, Librairie C. Klincksieck, Paris 1957, pp 9-11.



المنارة للاستشارات

توجّه في الثقافة الإسلامية يؤكّد على طروحات التاريخ في بنية الفكر، ويؤسّس بمناهجه في تكوين المعرفة.

وتأتي إسهاماته متمثّلة في نصوص حكت التاريخ بسرديات متميّزة في سياقها، حيث الرواية فيها ليست من مرويات الرجال فحسب، ولكنّها من إيحاء ثقافة كوّنتها الرحلة في الجغرافيا، التي تسرد التاريخ كما تسرده الرواية.

**اليعقوبي وإرهاصات الكتابة التاريخية عند الجغرافيين**

يمثّل اليعقوبي(ت292هـ/905م) نموذجا في الكتابة التاريخية، فهو يمسك بتوجّهات من قبله، الذين سبقوا إلى تحرير النصّ التاريخي، كما أنّه يسلك منهجا جديدا تفرضه عليه توجّهاته المعرفية. ففي الكتابة المرسلة يتشاكل تاريخ ابن خيّاط(ت240هـ/854م) وتاريخ اليعقوبي، غير أنّ اليعقوبي يلتزمها في كلّ تاريخه، بل يرى محقّق كتابه أنّه هو من أبدع هذا المنهج في الكتابات التاريخية العربية، وقضى بذلك على منهج الإسناد المتأثّر بعلوم الحديث[1].

واليعقوبي الذي كان معاصرا للطبري، كان مؤرّخا ورحّالة في آن واحد، و" الأثر الجغرافي واضح في كتابه "[2]، لذلك جاءت كتاباته مباشرة تتوافق مع الشهود والمعاينة[3] التي يتظاهر بها الرحّالة، الذي بشهادته يجعل نفسه في كثير من الأحوال ضمن سياق الحدث الذي يباشره، مؤكّدا بذلك

(1) اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب(292هـ/905م): تاريخ اليعقوبي، تحقيق: عبد الأمير مهنّا، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، ط 01، بيروت 1413هـ/1993م، م 01، ص 08.

(2) السيد عبد العزيز سالم: التاريخ والمؤرّخون العرب، دار النهضة العربية، بيروت 1981، ص 93. شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرّخون، ط 03، دار العلم للملايين، بيروت 1983، ج 01، ص 250.

(3) Christopher ( Lucken; Mireille ( Séguy ), "L'invention de l'histoire", in: Médiévales, Paris 2000, V 19, N° 38, p 09.



المنارة للاستشارات

حضوره فيما يكتب[1].

وفي كتابه البلدان نلحظ أهمّية المقدّمات الجغرافية في بناءات إشكالات المعرفة التاريخية، كما نلحظ تكوّن منهج تأسيس هذه المعرفة بتراكمية تساؤلات الجغرافيا، حيث يصبح المحتوى التاريخي نهائية المعطى الجغرافي[2].

وانسحبت هذه الذهنية على كلّ ما يكتب فجاءت نصوصه على منوال الكتابة المباشرة، وابتعدت عن منهج الرواية لأنّ سياقاتها لا تحقّق معنى حضور الجغرافي[3].

نلمح هذا ونحن نتتبّع مقدّمة الجزء الثاني الذي باشر فيه التأريخ للإسلام، حيث جاء منصوصه ليدلّ على المنهج الذي اتّبعه لا من حيث ابتكاره لجديد، و لكن من حيث صياغة الذي سبق إليه. وهو من خلال عرضه الموجز يفصح كيف أنّ احتواء المادّة التاريخية صار إلى نسق جديد.

هذا النسق يتمثّل في بيان خصوصية عمله التأريخي، حيث يقول:"...ألّفنا كتابنا هذا على ما رواه الأشياخ المتقدّمون من العلماء، والروّاة، وأصحاب السير والأخبار والتأريخيات، ولم نذهب إلى التفرّد بكتاب نصنّفه، ونتكلّف منه ما قد سبقنا إليه غيرنا. لكنّا ذهبنا إلى جمع المقالات والروايات، لأنّا قد وجدناهم قد اختلفوا في أحاديثهم وأخبارهم، وفي السنين والأعمال، وزاد بعضهم، ونقص بعض، فأردنا أن نجمع ما انتهى إلينا ممّا جاء به كلّ امرئ منهم..."[4].

---

(1) لا يفهم من هذا أن يجعل المؤرّخ نفسه ضمن الحدث نفسه، ولكن ضمن سياق إيراده ،حتّى تجد من المؤرّخ الحضور الجغرافي، وتغيب ملامح الراوي.

(2) اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب(292هـ/905م): كتاب البلدان، ليدن 1820، ص 2.

(3) Saber Mansouri : "Perses, Grecs et Romains dans les écrits arabes du Moyen-Age : histoires proches et histoires lointaines", in: Dialogues d'histoire ancienne, Paris 1998, V 24, N° 2, p 144.

و أدعو إلى دراسة متأنّية في التاريخ الجغرافي، وأزعم أنّ مادّته فيها كثير من المؤرّخ على حساب التاريخ.

(4) اليعقوبي، التاريخ، م 02، ص 05.



المنارة للاستشارات

يأتي التأليف إذن، لحاجة جمع المختلف، وهي حاجة المؤرّخ الذي تتعارض عنده النصوص[1] فيعتريه الانزعاج من أجل تحويل كلّ مختلف إلى إشكالات تصاغ في سياق تاريخ التأريخ، أو تبلور إلى منهج للدراسات التاريخية.

هذا الانزعاج أطّره اليعقوبي من خلال تأثّره بالجغرافيا، وصبغه بنفسية الجغرافي الذي يصوغ التاريخ كأنّه يكتبه من وعائه الزمكاني[2]، ويحوّل روايات السابقين إلى مادّة تصاغ من خلاله هو، لذلك يقول بعد أن يذكر عمّن روى عنهم: "و أثبتنا عن غير هؤلاء الذين سمّينا جملا جاء بها غيرهم، ورواها سواهم، وعلمناها من سير الخلفاء[3].

إنّ سياق الكلام في منصوص اليعقوبي[4] يدلّ على ما أسلفنا من أنّه يصوغ المادّة المروية في كتابة تاريخه كأنّه يباشرها من حيّزها، حيث المشاهدة الشخصية إحدى سمات هذه الكتابات[5]. والقرينة في ذلك إردافه ما علم لما روى من مختلفهم، وهذا الإرداف يأخذ من اليعقوبي الجغرافي أكثر ممّا يأخذ من

(1) المؤرّخ بين نصوص متعاضدة و نصوص متعارضة، و في كلتا الحالين يمارس المؤرّخ عمله ويبسط مهارته، وهذه من أوكد القرائن على صعوبة القراءة التاريخية.

(2) هذا لا يشمل الذين كتبوا تواريخ خاصّة، أو سير شخصيات عاصروها، مثل بهاء الدين بن شدّاد الذي قال: " رأيت أن أختصر من ذلك ما أملاه عليّ العيان، أو الخبر الذي يقارب مظنونه الإيقان".أنظر: بهاء الدين بن شدّاد(632هـ/ 1239م): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشيّال، مكتبة خانجي، الطبعة الثانية، القاهرة 1415هـ/1994م، ص 26.

(3) اليعقوبي، المصدر السابق، ج 02، ص 06.

(4) أنا أدعو إلى قراءة النصوص الإسلامية لا من خلال المصطلح فقط، بل من خلال تركيب الكلام، إذ كلّ لغة لها تراكيبها، و كلّ مؤلّف له من هذه التراكيب خصوصيته، و مفهوم المصطلح يبرز من خلال السياق الذي جاء ضمنه.

(5) البشاري المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: محمّد مخزوم، د ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1408هـ/1987م، ص 06.



المنارة للاستشارات

اليعقوبي الراوي[1].

**تحليل النصّ المسعودي**

وتأثّر المسعودي في كتابته باليعقوبي[2]، في إدراج المسألة المعرفية التاريخية ضمن سياق يتوافق مع نفسية الجغرافي، الذي يمتلئ بالمشاهدة فيملأ تاريخه بالشهادة[3]. والأثر الجغرافي بيّن في سياقاته، ومباشرته الكتابة التاريخية[4]. وكتاباته التي وصلت إلينا قامت مثالا حيّا على صعوبة الفصل بين المؤلّفات التاريخية والجغرافية[5].

وفي مقدّمته لكتابه جاءت صياغة الاعتذار عن التقصير بتذكير مقصود أو غير مقصود بحيثيات حياته التي نستشفّ منها أنّها حياة الجغرافي الذي تمرّس بالرحلة، حتّى جعل منها مكوّنات المعرفة التاريخية بدلا من الرواية. فكانت الرحلة للمعاينة استخبارا للجغرافيا بدلا من استخبار الرجال، كما هو شأن الذين يعتمدون الرواية.

ذلك إنّ استخبار الرجال عند أهل الحديث ومن شاكلهم في تحقيق

---

(1) لابدّ أن نؤكّد على وجوب النظر في اتّجاهات المؤرّخين المذهبية والطائفية، حيث استثمر كلّ واحد منهجه في نصرة مذهبه أو شيعته. واليعقوبي لا يخفى تشيّعه على باحث.

(2) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص: 93. يرى جب أنّه من المتعذّر تكوين فكرة صادقة عنه لفقدان أكبر مصنّفاته. أنظر: جب: علم التاريخ، ترجمة ، إبراهيم خورشيد و عبد الحميد يونس و حسن عثمان، سلسلة كتب دائرة المعارف، ط 01، بيروت 1981، ص 70.

(3) ما يحقّقه الجغرافي من المشاهدة يجعله قرائن للاستدلال، أو علامات للإثبات، أو يستقصي منه الحدث التاريخي المبثوث في الثقافة أو الخصائص الفيزيولوجية. أنظر بعض الإشارات إلى ذلك:

William (F. Edward): "Des caractères physiologiques des races humaines considérés dans leurs rapports avec l'histoire", Chez Compère Jeune libraire, Paris, pp 1-6.

(4) Saber Mansouri : op cit, p : 139.

(5) إغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، د ط، لجنة التأليف و الترجمة و النشر، جامعة الدول العربية، القاهرة 1963، ج 01، ص 178.



المنارة للاستشارات

التاريخ من خلال الرواية هو معرفة تاريخية تنتصب فيها الحقيقة في صدق الرواية والنقل، ويكون هذا الاستخبار هو معيارية البحث التاريخي والتدقيق فيه.

وأمّا استخبار الجغرافيا فهو معيارية البحث التاريخي من حيث الوعاء المكاني الذي حازه. فالحدود الزمنية والمكانية من شروط الفعل التي يجب أن تكون من تحقيقاته في الدراسات، التي تنوّعت مناهجها في تناول هذه الحدود بشرطية الإمكان والاستعداد.

وتحليل خطابه في هذه الصياغة يبيّن أنّ الاعتذار جاء على شكل بيان لمصادره، وهي طريقة رائعة في استهلال المنهج بالمصدرية، وبداية الكتابة بالمرجعية، التي هي في عرف الجغرافيين السياحة في الآفاق. وجعلها في إطار الاعتذار ليستصحبها القارئ في تعاطيه مع المعرفة التي يحملها كتابه.

إنّ مصدرية "حدّثنا" و"أخبرنا"[1]، ومنهجية العهدة على الراوي، تغيب بمحتواها كصياغة معرفية تاريخية، لتحلّ محلّها مصدرية "رأيت"[2] التي يكون المؤرّخ هو مصدر المعرفة فيها، لا من حيث خلقها مثل الفلسفة، ولكن من حيث أنّها أصبحت تمرّ من خلاله، بصيغة الامتلاء التي ذكرناها.

وهكذا تأتي المقدّمة المسعودية لتبعث في القارئ وفي سياق الكتاب، أنّ المعرفة التاريخية المنصوص عليها هي صورة معرفية لاحتواء الجغرافيا بمنظور الزمن. ومنه تنشأ التكوينية في تاريخيات الرحالة. ومن مقاربات التكوين المعرفي

(1) إنّما الرواية بهذه الطرق، وهي التي اعتمدها أهل الحديث من أجل أن يتّصل السند الذي هو "سلسلة الرواة الذين نقلوا الحديث واحدا عن الآخر، حتّى يبلغوا إلى قائله".لذلك قيل " لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء... بيننا وبين القوم القوائم... ما ذهاب العلم إلاّ الإسناد... لولا الإسناد لذهب الدين". أنظر: نور الدين عتر: منهج النقد في علوم الحديث، ط 03، دار الفكر المعاصر، دمشق 1418ه/1997م، صفحات 344- 345.

(2) أبو علي أحمد بن عمر بن رسته(القرن3 هـ/10م): الأعلاق النفيسة، د ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت، صفحات 124- 125.



المنارة للاستشارات

في السياق يقدّم بعضهم المسعودي على الطبري[1] في احتواء الزمن التاريخي الممتلئ بالحدث، ونقل التاريخ إلى "مفهوم الرؤية المستنيرة عبر الأحداث للتوصّل إلى قدرة أفضل في فهم أحوال الدنيا ومسيرتها، ومصائر الأمور فيها"[2].

قال المسعودي: "على أنا نعتذر من تقصير إن كان، ونتنصّل من إغفال إن عرض، لما قد شاب خواطرنا، وغمر قلوبنا، من تقاذف الأسفار، وقطع القفار، تارة على متن البحر، وتارة على ظهر البرّ، مستعلمين بدائع الأمم بالمشاهدة، عارفين خواصّ الأقاليم بالمعاينة، كقطعنا بلاد السند والزنج والصنف والصين والزابج، وتقحّمنا الشرق والغرب، فتارة بأقصى خراسان، وتارة بوسائط إرمينية وأذربيجان والران والبيلقان، وطورا بالعراق، وطورا بالشام، فسيري في الآفاق، سرى الشمس في الإشراق[3].

إنّ التأليف اللفظي للجملة المسعودية يكوّن المعنى الجغرافي المهيمن على الغرض المعرفي، ولا يمنح للمعنى التاريخي غير مساحة تتحدّد من خلال المسعودي نفسه، فالزمن التاريخي الذي يملأ كتابه بعد ذلك ينبثق من مشاهداته التي تطلّ على آفاق الفعل الإنساني في الجغرافيا، وهكذا يتكوّن معنى التاريخ.

إنّ "اشتغاله بالجغرافيا، ومزجه إياها بالتاريخ، وتعويله على الرحلات طوال أربعين عاما"[4]، أعطى ميزة خاصّة لكتاباته، التي رسمت نسقا معيّنا حدّد

---

(1) Mohammad Hamidullah, "Contribution des musulmans méditerranéens à la sciences historique", in: Revue de l'occident musulman et de la méditerranée, Paris 1973, V 15, N° 01, p 38.

(2) أحمد العناني: المسعودي ينقل التاريخ لمرحلة جديدة، الدوحة، ع 108، الدوحة، قطر ديسمبر / كانون الأوّل 1984، ص 85.

(3) علي بن الحسين أبو الحسن المسعودي(346هـ/957م): مروج الذهب ومعادن الجوهر،تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد، دار الرشاد الحديثة، ط 05، بيروت 1393هـ/1973م، ج 01، ص 10.

(4) محمود إسماعيل: إشكالية تفسير التاريخ عند المؤرّخين المسلمين الأوائل، عالم الفكر، ع 04، م 29، الكويت 2001، ص 45.



المنارة للاستشارات

المعنى الذي تركّز في نظرته لما يحاول. وبذلك جاءت نصوصه تحمل المعنى الزمني للتاريخ من بداياته الطبيعية[1]، و"كانت معلوماته الجغرافية حافلة بالتأويلات والتفسيرات التي تربط بين حركة التاريخ وحركة الكواكب، وكذلك بينه وبين الجغرافيا الطبيعية"[2]، وهكذا كان أدبه الجغرافي مدخلا لتواريخه[3].

وفي مقدّمة كتابه أخبار الزمان، تأتي الديباجة مؤكّدة الرؤية التي تهيمن على المؤرّخين الجغرافيين. ففي الوقت الذي يؤكّد فيه أنّ ما يورده من أخبار إنّما وصله عن طريق النقل، أي الرواية[4]، يأتي السياق بمتناول لفظي ينبئ تركيبه عن ذهنية مغايرة لذهنية الرواة، بل هي لمن أكثر السياحة، وجال بالجغرافيا مستطلعا ومستكشفا. فاللفظ المختار أقرب لنفسية الجغرافي منه إلى نفسية الراوي.

قال: "ثمّ نذكر ما وقع إلينا من أسرار الطبائع، و أصناف الخلق...من عجائب الأعمال...من عجائب البلدان...وبنوا من هياكلهم...وأودعوه نواويسهم...وزبروه أحجارهم. على حسب ما نقل إلينا"[5].

ولا ينفكّ عن هذا التوجّه في كلّ ما كتب، وذلك أنّ ذهنيته المتلئة بالمعنى الجغرافي توجّه اختياراته المعرفية، ولا تزايله من لدن اختيار اللفظ إلى تأسيس الواقعة ضمن منصوصه في مدوّنه[6].

---

(1) هذا المعنى كان قاعدة لفلسفة التاريخ في القرن التاسع عشر.

(2) محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص 45.

(3) عبد الفتّاح محمّد وهيبه: جغرافية المسعودي بين النظرية و الواقع، د ط، منشأة المعارف، الإسكندرية 1415هـ/1995م، ص 27.

(4) علي بن الحسين المسعودي: أخبار الزمان، تحقيق، عبد الله الصاوي، ط 01، القاهرة 1357هـ/ 1938م، ص 02.

(5) المصدر السابق، صفحتا 1- 2.

(6) هذه منهجيته في كلّ ما كتب. أنظر: علي بن الحسين المسعودي: كتاب التنبيه والإشراف، مكتبة خيّاط، بيروت 1965، ص 03.



المنارة للاستشارات

**خصوصية المعرفة التاريخية من خلال الفكر الجغرافي للمسعودي**

يبيّن المسعودي كيف يتمثّل التاريخ ، وكيف يتركّب السرد في كتابه بقوله: "وليس من لزم جهة وطنه، وقنع بما نمي إليه من الأخبار عن إقليمه، كمن قسّم عمره على قطع الأقطار، ووزّع أيّامه بين تقاذف الأسفار، واستخراج كلّ دقيق من معدنه، وإثارة كلّ نفيس من مكمنه"[1].

وهذا نصّ جدير بالنظر والاهتمام لما يحمل من دلالات عميقة على التوجّه المسعودي في تناول التاريخ. فهو يفصل بين من أدركته الرواية صرفة، والخبر صافيا، ولم يكلّف نفسه إلّا إثباتها بمنهج الرواة، من حيث تحقيق السند بحدّثنا وأخبرنا.

أمّا هو فيظهر ميزة سرده من خلال بيان حركته في تحصيل التاريخ، وكيفية معرفة الوقائع واحتواءها من مكامنها الطبيعية، وبذلك يدرك من التاريخ ما لا يدركه الراوي، الذي لم يعاين الإطار والوعاء الذي تكوّن فيه الحدث. ولم يستثر أدوات البحث في ذهنيته بمحاورة الجغرافيا، التي توحي بإشكالات المعطى أكثر ممّا توحي بخلاصات الواقعة.

إنّ الفكر الجغرافي الذي يكوّن عقل مؤرّخنا يحمل دلالات معرفية تطرحها الجغرافيا بخصوصيتها البشرية أكثر من خصوصيتها الفيزيائية، ومنها ينسلّ التاريخ إلى التمثّلات العامّة للحدث المكوّن بين الإنسان والجغرافيا بقيمة زمنية نسبية إلى الوجود الفعلي الذي جمع بينهما.[2]

وإلى نسق منهجي مغاير لما تنهد إليه الدراسة وقراءتها للسياقات المنتخبة، يمكن أن نؤكّد على قيمة منهجية وردت في كتب الجغرافيين المسلمين الذين أضفوا من نزعتهم الجغرافية على منصوصات التاريخ، وبهذا أدرجوا

(1) المسعودي، مروج الذهب، ج 01، ص 12.

(2) للجغرافيا في عصر اليعقوبي وبعده تأثيرات معرفية كبيرة تمنح النصّ التاريخي خصوصية وميزة. انظر:

Miquel(André) : Rome chez les géographes arabes. In: Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, Paris 1975,119 année, N° 2, p 281.



المنارة للاستشارات

مفهوما معاصرا للدراسات التاريخية، وهو المفهوم الذي يؤكّد على العلوم المساعدة، وخاصّة على علاقة التاريخ بالجغرافيا، وإبراز قيمتها في إثبات حقائق التاريخ[1]، وشهادتها المدعّمة لقراراته[2]، واتّخاذ القيم الجغرافية معالم مبدئية، تسبق الدراسات التاريخية والحضارية[3].

وفي تحليل الكتابات الجغرافية سواء القديمة منها والحديثة، يرى هذا المزج المنهجي بين الجغرافيا والتاريخ، وسيّان في ذلك انطلقت الدراسة من الجغرافيا إلى التاريخ، أو من التاريخ إلى الجغرافيا[4]. فالتعاقب بينهما ضرورة منهجية، وحتمية عقلية في تفهّم الوجود الذي يشكّل التاريخ فيه المعنى الإنساني.

إنّه جزء من فيض السيكولوجيا على المعرفة، أي تأثير البناء المعرفي الأوّل في بنية التكوين المعرفي. فالرؤية تتشكّل من علاقة الجغرافيا بالتاريخ، حيث لا وقائع من دون الحيّز الجغرافي، ولا معنى للجغرافيا بدون المعنى الوجودي للإنسان المتظاهر بالتاريخ.

يفرض المعنى التركيبي للمعرفة التي لا ينفكّ فيها التاريخ عن الجغرافيا، أن تجعل من المهتمّ بالجغرافيا مؤرّخا، أو مستلهما للتاريخ، ولا يمكنه

---

(1) جوردن إيست: الجغرافيا توجّه التاريخ، ترجمة: جمال الدين الدناصوري، دار الحداثة، ط 02، بيروت 1982، صفحات 10- 14.

و يطرح أحدهم الجغرافيا على "أنّها تاريخ شغل الأرض وترجمة للطبيعة المؤنسنة". أنظر:

Lucien (Febvre): "Histoire et géographie", in: A E S C, Paris 1950, V 05, N° 01, p: 87.

(2) Macaulay (Stanlay): "Historical nuggets: The essence and Art of History", New York 1900, p 72.

(3) Harry (Elmer Barnes): "History, its rise and development", New York 1919, p 255.

(4) دفع هذا التماهي بين التاريخ والجغرافيا في بناء معرفة أنطولوجية متعلّقة بالزمن إلى اعتماد بعض الباحثين فكرة تأثير التاريخ في ظهور التوجّه المعرفي الجغرافي. أنظر:

اندريه ميكيل: جغرافية دار الإسلام البشرية حتّى منتصف القرن الحادي عشر، ترجمة: إبراهيم خوري، د ط، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1983، ق 01، ص 97.



المنارة للاستشارات

أن يزيّل بينهما في محاولته تأطير النسق الزمني بحيّز الجغرافيا، أو بأحداث التاريخ. وكثيرون من الجغرافيين تعاطوا التاريخ بهذا الاتّجاه[1].

والدثار التاريخي هو المعنى الأساسي في الدراسات الجغرافية، خصوصا منها ما ارتبط بآثار الفعل الإنساني وحضارته، حيث يُنشَّأ المفهوم الجغرافي مُؤطَّرا بالحدث الذي هو جزئية التاريخ، فتصبح الجغرافيا متماهية في التاريخ، ولا تتوحّد بالتكوين المعرفي إلاّ أن تكون دراسة جيولوجية سابقة للتاريخ، أو خارجة عن حيّز تأثيره[2].

وبالمنظور الابستمولوجي لبناءات المعرفة يتكوّن المحصّل من المفهوم المعطى للتاريخ من خلال الجغرافيا، بمنهج تحييز[3] حركة الإنسان، وتمثّلها تفاعلا زمنيا بينه وبين الأرض[4]، وجدلا قائما بمعايير زمنية بين فعله وانفعاله، أي بين ما تمنحه الجغرافيا، وما يحقّقه الإنسان[5].

إنّ أرنولد توينبي وهو يرصد التاريخ عبر حضارات الإنسان المتباينة، أشكل عليه أن يجد المتعلّق من التاريخ بين هذه الحضارات إلاّ من حركة الطبيعة التي كان يدرك أنّها لا تفعل بالمعنى الإيجابي كما يفعل الإنسان، ولكن لها حضورها الذي يتمثّله كلّ من حاول التاريخ دراسة وتعقّلا. لذلك جاءت نظريته العامّة حول التحدّي والاستجابة، التي تعطي بالمفهوم الرياضي

---

(1) André (Bourgey): "Islam et géographie", in: Revue de géographie de Lion, V 45, No 01, Lion 1970, p 76.

(2) نلمح ذلك في دراسات كثيرة. للمثال، أنظر:

بشير مقيبس: مدينة وهران: دراسة في جغرافية العمران، د ط، المؤسّسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983. وعبد القادر حليمي: مدينة الجزائر نشأتها و تطوّرها، ط 01، المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي، الجزائر 1972.

(3) أي إضفاء الحيّز على كلّ نشاطات الإنسان، وربطها به.

(4) تطوّر الحيّز ليصبح الكون بأكمله، وكان تطوّره نتيجة للتاريخ.

(5) أنظر بعض هذا الذي تناولنا في:

Pierre (Deffontaines): "Sur la géographie préhistorique", in: "Annales de géographie, T 23, N° 181, Paris 1924, p 19.



المنارة للاستشارات

إحداثيات الفعل الإنساني الذي يكوّن جزئيات التاريخ.

**التحصيل الإبستيمي من المقاربة في النصّ المسعودي**

إنّ الاختلاف الحاصل بين الرواية والمشاهدة في تشكيل المعرفة التاريخية، لم ينته إلى غاية التكوين المنهجي. ذلك أنّ مفهوم التاريخ من خلال المنجز التأريخي لم يستقر على تصوّر شامل لبنية التركيب بين المادّة التاريخية والمؤرّخ، وبين ميدان البحث والمنهج[1]. وظلّت المعرفة التاريخية ضمن مسطّحات الفكر والعلم، ولم تدفعها ابستمولوجية التناول الداخلي إلى تعميق المفهومية لتتّسق بنائية المعرفة مع أساس التصوّر.

ويبقى هذا إشكالا معرفيا قائما يُناوب المنهج بارتداد في التعاطي مع المادّة المعجمية وردّ المحصّل المعرفي عليها، من أجل تكوين معادلات تركيب الصور العقلية العاكسة للمعنى في ذهنية المؤرّخ، والناتجة عن تفاعل القيم التوصيفية الأوّلية مع حفريات المعرفة المتجدّدة.

هذه الرؤية للسياقات ليست مطّردة في مبناها، وليست مندفعة بالمعرفة إلى خلاصات منهجية نهائية، لذلك تمتلك الرؤية الابستمولوجية للتاريخ – من خلال سياقاته – القدرة على البداء[2]، والرجوع إلى محاورة المنهج، واسترداد الأوّليات وتكويرها على المحصّلات النهائية. وهكذا تبقى المادّة المعجمية حاضرة في البناءات المعرفية.

كما تبقى الأساليب والرؤى القديمة مصحوبة وفق نسق منهجي ومعرفي يخوّل للتركيبة أن تعاود الانفتاح على جزئياتها أو معطياتها. وتتيح للقديم أن يتجدّد في مساحات الحديث[3]، إذا اقتضت ضرورات المنهج، أو انتكست المعرفة بأساليبها الجديدة فسحبت أساليب تليدة بمفهوم التكوير المنهجي.

---

(1) لعلّ هذا من أسباب ذلك الارتباك في كتاب الطبري كما بيّنا في مقال سابق، مجلّة الواحات، ع 20، غرداية جوان 2014..

(2) أستعير هذا المعنى الوارد في أدبيات الشيعة لأدلّ به على المراد.

(3) Lawrence Stone : "The revival of narrative: reflections on a new old history",in: Past & present, , London, 1979, N° 85, p: 03.



المنارة للاستشارات

والذي يتشكّل في بنية الفكر التاريخي من الاختلاف بين الرواية والمشاهدة –بالمعطى الذي ذكرنا– لا يحدّد مفهوم التاريخ إلاّ بربطه بالنسق المعرفي الذي جاء مهيمنا عليه، حيث ظلّ التاريخ يصاغ استدلالا على حادثة، أو توقيتا لأحداث مضت، وربطها بحيّز الزمن. وهذا المعنى نفسه الذي بسطته المادّة المعجمية.

**خاتمة –**

يمنح المسعودي مفهوما للتاريخ من خلال منهج الكتابة الذي يحرّر النصّ بتحقيق للرواية ومحاورة للجغرافيا، بتمثّلات يتفاعل فيها المعنى الزمني للفعل والحدث مع الحيّز المكاني، من خلال استقطاب الجغرافيا إلى حيّز المفهوم لا من حيث شرطيتها في الفعل والحركة، ولكن من حيث انعكاسات حدودها الفيزيائية، ليصبح التاريخ عنده صورة الإنسان الزمنية في الجغرافيا.

وأدمج المسعودي البعد الفيزيائي في تركيب معنى التاريخ في تمثّلاته للحدث، ليتعمّق الفهم في رسم الوقائع محاولا إدراك الحقائق التي تنهد إليها التاريخ بمقارباته وتفسيراته.

إنّ الجغرافيا في بنية فكر المؤرّخين الجغرافيين هي معنى التاريخ من حيث تحقّق الحدث. أي هي الصورة الفيزيائية للفعل الذي يتبدّى منها كما حوته بحيّزها، فأصبحت شرطا في وقوعه، كما أصبحت بعدا في مفهوم حكايته.

إنّ التاريخ ليس مجرّد تسجيل للحدث بذهنية الترقيم والتدوين اللاواعي. إنّه وعي كامل بالحدث الإنساني، وإدراك لمعنى تحويل حكاية الحدث وسرده إلى نصّ تبنى من خلاله الرؤى، وتبعث حوله الإشكالات، ليصير التاريخ من توجّهات العقل في إنتاج المعرفة.

وإنّ الجغرافيا بمعناها الفيزيائي تشكّل بنية من بنيات العقل التأريخي بمنطلق شرط تحقّق الفعل، لتصبح بمعناها البشري إحدى المكوّنات المعرفية في إنشاء الفكر الذي يتمثّل التاريخ علما في الإنسان بأبعاد كلّ المكوّنات لحركته.

إنّ السرد عند المسعودي وغيره من الجغرافيين ليس رواية وإخبارا فحسب،



المنارة للاستشارات

ولكنّه استلهام تمنحه ازدواجية الرحلة- الجغرافيا، التي أعطته بعدا يفتح مفهوم التاريخ على رؤى كثيرة من أجل تحقيق مقاربة صحيحة للواقعة وحيثياتها.

**المصادر والمراجع**


- إسماعيل محمود: إشكالية تفسير التاريخ عند المؤرّخين المسلمين الأوائل، عالم الفكر، ع 04، م 29، الكويت 2001.
- اندريه ميكيل: جغرافية دار الإسلام البشرية حتّى منتصف القرن الحادي عشر، ترجمة: إبراهيم خوري، د ط، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1983.
- بشير مقيبس: مدينة وهران: دراسة في جغرافية العمران، د ط، المؤسّسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983.
- بهاء الدين بن شدّاد(632هـ/ 1239م): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشيّال، مكتبة خانجي، الطبعة الثانية، القاهرة 1415هـ/1994م.
- جب: علم التاريخ، ترجمة ، إبراهيم خورشيد و عبد الحميد يونس و حسن عثمان، سلسلة كتب دائرة المعارف، ط 01.
- جوردن إيست: الجغرافيا توجّه التاريخ، ترجمة: جمال الدين الدناصوري، دار الحداثة، ط 02، بيروت 1982.
- الخطيب البغدادي أحمد بن علي (ت 463هـ/1072م): الرحلة في طلب الحديث، ترجمة: نور الدين عتر، ط 01، دار الكتب العلمية، دمشق 1395هـ/ 1975م.
- ابن رسته أبو علي أحمد بن عمر (القرن3 هـ/10م): الأعلاق النفيسة، د ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت.
- سالم السيد عبد العزيز: التاريخ و المؤرّخون العرب، دار النهضة العربية، بيروت 1981.
- عبد القادر حليمي: مدينة الجزائر نشأتها و تطوّرها، ط 01، المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي، الجزائر 1972.
- عتر نور الدين: منهج النقد في علوم الحديث، ط 03، دار الفكر المعاصر، دمشق 1418هـ/1997م.
- العناني أحمد: المسعودي ينقل التاريخ لمرحلة جديدة، الدوحة، ع 108، الدوحة، قطر ديسمبر / كانون الأوّل 1984.




المنارة للاستشارات

- كراتشكوفسكي إغناطيوس يوليانوفتش: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، د ط، لجنة التأليف والترجمة والنشر، جامعة الدول العربية، القاهرة 1963.

- مصطفى شاكر: التاريخ العربي والمؤرّخون، ط 03، دار العلم للملايين، بيروت 1983.

- المقدسي البشاري: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: محمّد مخزوم، د ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1408ه/1987م.

- المسعودي علي بن الحسين أبو الحسن (346ه/957م):

- أخبار الزمان، تحقيق، عبد الله الصاوي، ط 01، القاهرة 1357ه/ 1938م.

- مروج الذهب ومعادن الجوهر،تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد، دار الرشاد الحديثة، ط 05، بيروت 1393ه/1973م.

- وهيبه عبد الفتّاح محمّد: جغرافية المسعودي بين النظرية و الواقع، د ط، منشأة المعارف، الإسكندرية 1415ه/1995م.

- اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب(292ه/905م):

- تاريخ اليعقوبي، تحقيق: عبد الأمير مهنّا، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، ط 01، بيروت 1413ه/1993م

- كتاب البلدان، ليدن 1820.

- André (Miquel) : Rome chez les géographes arabes. In: Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, Paris 1975,119 année, N° 2.

- Blachère (Régis) et Henri (Darmaun): Extraits des principaux géographes arabes du Moyen Age, 2em Edition, Librairie C. Klincksieck, Paris 195.

- Bourgey (André): "Islam et géographie", in: Revue de géographie de Lion, V 45, No 01, Lion 1970.

- Deffontaines (Pierre): "Sur la géographie préhistorique", in: "Annales de géographie, T 23, N° 181, Paris 1924.

- Elmer Barnes (Harry): "History, its rise and development", New

- Febvre (Lucien): "Histoire et géographie", in: A York 1919, p 255.

E S C, Paris 1950, V 05, N° 01. - Hamidullah (Mohammad), "Contribution des musulmans méditerranéens à la sciences historique", in: Revue de l'occident musulman et de la méditerranée, Paris 1973, V 15, N° 01.

- Lucken (Christopher) Mireille ( Séguy ), "L'invention de l'histoire", in: Médiévales, Paris 2000, V 19, N° 38.



المنارة للاستشارات

- Mansouri (Saber) : "Perses, Grecs et Romains dans les écrits arabes du Moyen-Age : histoires proches et histoires lointaines", in: Dialogues d'histoire ancienne, Paris 1998, V 24, N° 2.
- Stanlay (Macaulay): "Historical nuggets: The essence and Art of History", New York 1900.
Stone (Lawrence) : "The revival of narrative: reflections on a new old history", in: Past & present, , London, 1979, N° 85.
- William (F. Edward): "Des caractères physiologiques des races humaines considérés dans leurs rapports avec l'histoire", Chez Compère Jeune libraire, Paris.



المنارة للاستشارات